

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم * * * لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل
و منهم السیرافی النحوی الحسن بن عبداً كان ینسج ویأكل من كسب یده، ومنهم الشیخ أبو
حامد الاسفراینی، قیل فی سیرته: إنه إمام المذهب علی ا لاطلاق وشیخ الإسلام والمسلمین
قاطبة، وكان یحضر مجلسه ثلاثمائة متفقه، كان هذا الشیخ یشغل حارساً فی اللیل لبیوت
الناس، ویقرأ ویطالع علی ضوء فانوس الحرس، ومنهم الزبیدی محمد بن یحیی تزیید مصنفاته علی
مئة تصنیف فی شتی العلوم والفنون، وقد بلغ به الفقر والجوع أنه كان یضع نواة فی حلقة
یلوكها لیتعلل بها.

و منهم عبدالقادر السهروردي كان یبقي الیوم والیومین لا یذوق الزاد، وكان ینقل الماء
بالقربة بأجر زهید. وكان الشهید الثاني زین الدین العاملي علی علمه ومكانته ینقل الحطب
علی ظهره إلى أهله لعجزه عن أجرة الخادم، وباع الشیخ عبدالمحسن الصوری عمامته لیشتري
بثمنها قوت یومه، ویكفي هذا العدد الیسیر مثالا لحیة قادة الفكر وائمة الدین واللغة
البائسین، وتمهیداً ل بیان فكرة الزهد وأسبابها.

عاش الخلیل فی خص من القصب لا یملك فلسین، واشتغل شیخ الإسلام والمسلمین حارساً، ومات
الافش من الجوع، عاش هؤلاء وأمثالهم فی الحرمان وهم یرون إلى الاموال تجبى من العامل
والفلاح وغيرهما فی شرق الارض وغربها لیبذرها الخونة والمقامرون علی الحرام والفسوق،
ویمتلكون بها الدور الشاهقة والضیاع الواسعة، وكان من نتیجة هذا الوضع الشاذ أن تراكم
السخط والاستیاء فی نفوس الشیوخ المحرومین من الذین قدمنا ذكرهم، والذین لم نأت لهم علی
ذكر وعوضاً عن أن یحملهم هذا الاستیاء علی النضال وجهاد القائمین علی الظلم، فقد انقلب
فی نفوس الكثير إلى یأس من الاصلاح وتبدل الحال، وتولد من هذا الیأس فكرة الزهد فی
الحیة الدنیا، والتهوین من شأنها، وكان لهذه الفكرة خطورتها وتأثیرها فی الحیة
الاجتماعیة بین المسلمین، فكتب علماؤهم فی الزهد وأطالوا، ودعو إليه فی امساجد
والمحافل، وألبسوه ثوب الدین والقداسة،